

كتاب جيل جديد الناس

كتاب جيل جديد الناس



حَيَات

مُجاهد الدومة

PDF



- حَيَوَات (قصص + نصوص)
- تأليف : مجاهد الدومة
- كتاب جيل جديد (٩)
- أكتوبر ٢٠١٦ م
- تصميم الغلاف : عمر مصطفى الملك
- لوحة الغلاف : زينب سعد الدين

الفهرس :

4	مقدمة
6	الإهداء
7	القصص :
8	تحليق
10	تداعي الذاكرة
12	ورقة الشيطان
14	وردتان وبنت
15	تقاطع
17	جمرة النار
19	المعلم
22	وداع علي ضفة السين
25	جدارية الليل
27	تلاشي
29	النصوص
30	ملاحظة تأملية : ثنائية الجمال والرعب
34	إلى صديق
36	الثقوب
39	عشر دقائق من هذيانات عاشق
40	شذرات

مقدمة

فلنأخذ طريقاً فرعياً يتصل بسؤال الكتابة، ولنسأل: لماذا يكتب أحد ما قصة؟. حسناً، لا يبدو لي أن لهذا السؤال جواباً واحداً تقاس بالنسبة إليه صحة أو خطأ الأجوبة المنتظرة. بل أكاد أظن ألا مكان للصحة والخطأ هنا، ناهيك عن احتمال أن لا تكون هناك إجابة البتة. إلا أن الكاتب الذي يطمئن إلى إجابة ما؛ فهو في رأيي يبدأ رسم طريقه ووجهته وهذا ما أعتقد أن مجاهد الدومة بدأه.

هذا السؤال عاد إلى ذهني من جديد، وأنا أقرأ مجموعة القصص والنصوص هذه، محاولاً النفاذ إلى ما يوجد خلف الأحرف المسطرة. إنني أعني سلفاً ماذا يعني "جيل جديد"، أو أظن أنني أعني ذلك، لذا كان همّي تعقب بذور الاختلاف التي ستنمو، من ثم، لتثمر في غابة الأدب، متمنياً أن تضيف مذاقاً جديداً إلى ما هو موجود.

في البداية من المهم التنبيه إلي أن هذه ليست دراسة نقدية، هي فقط انطباعات وملاحظات قارئ لا أكثر، الغرض منها المشاركة في إلقاء ضوء قد يكشف بعض جوانب، لكنه أيضاً قد يعتم - دون قصد - جوانب أخرى مشرقة لم تقع العين عليها، ففي النهاية أين هي تلك العين التي تحيط بكل شيء!

تتكون المجموعة، بحسب تصنيف الكاتب، من عشر قصص، وأربعة نصوص، وقطعة معنونة كملاحظة تأملية. في القصص يعلو صوت اليومي فيستغرق أكثرها، مثلما أن الشخصيات تكاد تكون مصابة بـ "اكتئاب اجتماعي" إن صح التعبير. لكن بعض القصص تتحرك في فضاء الأمل/الذكرى بسلاسة أكبر، وبعضها ينزع صوب نوع من الواقعية.

فمثلما تماهي كاتب قصة مع بطله الذي أنهى حياته عقب انتباهة أرتة كيف أن حياته تشبه حياة "جمل معصرة" معصوب العينين يدور بلا نهاية وبلا هدف يخصه، في قصة "تحليق"؛ تجده في قصة "المعلم" يلمس قلق الفنان وغرته. بينما في "وداع علي ضفة السين" يحكي عن اللقاءات العابرة التي لا ينبغي لها أن تكون كذلك. في حين أنه يدخل إلي فضاء الأمل/الذكرى في "تداعي الذاكرة" التي تعطي لمحة عن أثر حرب الجنوب الذي لا ينسى على آلاف الأسر التي فقدت أبناءها ممن سيقوا قسراً إلى المحرقة، وفي "ورقة الشيطان" أيضاً، التي تمسك بلحظة الطفولة وأساطيرها، بينما في "تقاطع" يرجع بنا إلى قصص الحب الأولى، المنتهية كالعادة بفراق الحبيبين الصغيرين.

هناك أيضاً "وردتان وبنت" وهي قصة قصيرة جداً، تلعب علي "المفارقة" فكلما العدوين يظن في نفسه الإنسانية، ويرى الآخر شريراً، في حين نخبرنا تعاملهما المتماثل مع الطرف المحايد - الطفلة، ألا فرق حقيقي بينهما.

لكن "جدارية الليل" التي تحكي قصة عن إنسانية المشردين، و "جمرة النار" التي تصف نوعاً خاصاً من صراع المفاهيم بين جيل يؤمن بالعلم، وجيل أقدم يختلط

عنده العلم بالغيبيات؛ تسييران في الخط الواقعي، وإن كانت الأولى تذهب نحو رومانسية ما.

وفي "تلاشي" نقرأ مونولوجاً داخلياً لسجين على وشك الخروج، يستعيد فيه اللحظات التي صبغت وجوده بالحياة، تلك الحياة التي تنتهي في اللحظة التي يخرج فيها من حياته الموازية التي كانت؛ إلى الحياة بما هي واقع يختلف عن الصورة، حد ألقى به في السجن بدءاً. بينما يبدو نص "إلى صديق" أقرب إلى خاطرة يصقل فيها المتكلم ذاته باستحضاره سيرة الآخر الصديق الغائب الحر. أما "ثنائية الجمال والرعب"؛ القطعة التي عنونها الكاتب بـ "ملاحظة تأملية" فهي تأمل في الذات والنفس وما وراءهما، عبر أمثلة تتلبس نماذج مبدعين.

النصوص الثلاثة، "الثقوب، عشر دقائق من هذيانات عاشق، شذرات"، بالترتيب، تسير في خط يذهب إلى الشعر في النهاية. فـ "الثقوب" كتابة/تداعي يقف بين الشعر والسرد، ثم تأتي "عشر دقائق من هذيانات عاشق" كرسائل قصيرة ذات شعرية ليست قليلة، وأخيراً "شذرات" الذي هونص شعري يشي بقدرة الكاتب علي محاورة اللغة بعد التخلص من – فيما بعد – من حمولات المقروئين من الشعراء.

إن الانشغال بالكتابة، بهذا المستوى الجيد، في سن مبكرة؛ لهو أمر يعد بالكثير. فمن المهم في رأيي ألا يتوقف الخلق، أن تستمر عملية الجدل ومن ثم التجاوز في المشهد الأدبي، وإلا صار الأدب اجتراراً أو إعادة تدوير لما هو موجود.

ثمة حاجة إلى أوكسجين جديد، جيل جديد، تأسيس لأرضية تصنعها مكونات تلائم تحولات البيئة، وليس التوقف عند المحطات ذاتها وليّ الذائقة لتشخيخ من أجل استطعام القديم. في هذا الجانب أجدني منحازاً للتجريب بمستوياته كلها.

وفي هذه المجموعة وإن بدت في الشكل تسير علي ذات المسار القديم، إلا أن هنالك ما يجعلها تستحق الاحتفاء، ففي النهاية لا يمكن لا يمكن لأحد السير بكامل التطابق فوق أثر الآخرين، لا بد من أثر جديد.

محفوظ بشري

قاص من السودان

الإهداء :

إلى ..

روح الحبيبة، وفي سفر آخر أُمِّي، فريدة يحي

إلى ..

الكائنات الجميلة (الأصدقاء) على امتداد المسافات

مجاهد

"القصص"

تحليق*

إلى الصديق خلف الله :

"شد عضلات جسمه الغض، لتصبح قامته ممشوقة تماماً وهو يقف على أمشاط قدميه، فيما هبوب الريح يُموج ملابسه بنعومة. ليبدو في حالته تلك وهو فارداً يديه كطائر على أهبة التحليق، كتمثال المسيح الذي يلقي بظلاله على فضاء تلك المدينة. ثم شهق بصوت شجي تفجر في مكامن ذاته وشعر بنفسه خفيفاً؛ بل دون وزن كذرة هواء. فما قد تمكن أخيراً - بعد معارك ضارية خاض غمارها لأكثر من شهر - من التغلب على تلك الرغبة ضاربة القدم في البقاء".

هكذا كنت تنسج أحداث قصتك وأنت تقف على قمة مبنى الإذاعة شاهق الارتفاع ورحت تنسج ملامح المشهد التالي : "كل شيء تغير عصر ذلك اليوم، بعد نزوله بصعوبة بالغة من الباص المتكدس بالبشر، عدل من وضعية قميصه بحركة تنم عن امتعاضه من السائق الذي فوته محطة المنزل في محاولته البائسة للحاق بإشارة المرور الخضراء. ثم شرع يفكر بغيظ في المسافة التي يتوجب عليه قطعها، رائحة الباص الكريمة العطنة ، العالقة بأنفه، ثرثرة الركاب وإزعاجهم. لكن كل هذه الأفكار تلاشت لحظة رفعه لرأسه واصطدام نظره بمشهد ذلك البعير. كان المشهد ليكون عادياً بالنسبة له حتى لو أخذنا في الاعتبار جسد البعير الهزيل والتقرحات التي تغطي مساحات واسعة من ظهره وبقية جسمه، أو حتى الطريقة التي يمضغ بها العلف اليابس الذي يتلقفه من الكيس المتدلي أسفل عنقه والتي تسبب القرف. لكن ما لم يجعله عادياً أن عيني البعير كانتا معصوبتين عن الرؤية بقطعة قماش حمراء فيما يتحرك في دائرة لا يتعدى قطرها الأربعة أمتار؛ موثوق إليها بجذع خشبي يمتد من إناء مجوف في مركز الدائرة. حينها انتابه دوار حاد، شعر بثقل في مؤخرة رأسه، وبشيء مثل الحنظل يندلق في تجويف حلقه، سمع قرير الدم الساخن يهدر داخله. أحس بالكراهة وتفاهة كل شيء من حوله. تسمر في مكانه غير قادر على الحركة، ظل مشدوهاً في وقفته تلك يرقب الحركة المتكررة واللانهائية للبعير. ولم يتحرك من مكانه إلا عند غروب الشمس حين حُل وثاق البعير وجمعت إنتاجية اليوم التي يبدو أنها كانت جيدة من الابتسامات التي تهلل بها وجه صاحب "معصرة الزيت".

بالكاد كان يرى أمامه بعينين شبه مغمضتين وهو يزرع الشارع بخطوات متثاقلة، وصل البيت بصعوبة بالغة وكان يشعر بالغثيان. دلف إلى غرفته دون إلقاء التحية

على أحد، ارتمى على السرير كجثة هامدة. وفي اليوم التالي تعمد النزول من الحافلة في نفس المكان، ثم في اليوم الذي يليه. لاحظ أفراد أسرته بعض التغيرات التي اجتاحتها: الملابس التي لم يعد يهتم بها، النظرة الذاهلة التي اكتست ملامحه، التأخر في الرد وصمت مطبق في أغلب الأحيان، مكوثه في غرفته لفترات طويلة يحرق خلالها في العتمة دون أن يفكر بشيء محدد؛ فقط هيجان عقلي حاد .

بعد أسبوع كان قد ترك العمل دون إخبار أحد، وفي صبيحة اليوم التالي جمع في حقيبته ما يدخره من مال إضافة لبعض ملابسه وأشياء أخرى ك (...) و (...) التي أخذها في السفر قبل تسلمه من المنزل، الشيء الوحيد الذي تركه كان قصاصة ورق صغيرة كتب عليها: "وداعاً!". سافر في رحلة تركها تنطلق كما اتفق، جاب مدناً كثيرة، سكر وترنج وبكى كطفل أضاع والدته في الزحام، خاض شجارات دون أسباب، صنع صداقات عابرة، تنقل من سرير امرأة إلى حضن أخرى، نام على الأرصفة وفي الخيران، حضر حفلات للزار وأخرى للذكر، رقص خلالهما وأغمي عليه. أربعة أشهر كاملة قضها في خوض تجارب من هذا النوع، لا يعلم الهدف منها. وقبل ما يقارب الشهر تملكته هذه الرغبة العجيبة؛ أراد تجريب التحليق؛ شعور أن تكون ساقطاً من على الهاوية والنشوة التي تصاحب إدراك ذلك، ثم تفرقع العظام وتطاير الأشلاء في الفراغ لحظة الارتطام بقاعدة المبنى الأسمنتية .

شهر كامل من الأرق وعدم النوم، اللهفة والتي يعارضها الجسد برغبة البقاء. كان يصعد يومياً إلى قمة مبنى الإذاعة، واليوم فقط، في هذه اللحظة، تخلص من كل تلك الهواجس والقيود التي يفرضها الجسد بوعيه لحقيقة الفناء، ليقف على حافة المبنى ثم..."

مهلاً! ماذا تفعل أنت أيها المجنون، لماذا تقف على حافة المبنى، تشد على عضلات جسمك الغض، لتصبح قامتك مشدودة تماماً، تطفر دمعة حارة من عينيك، يا إلهي! إنك تقفز.

الهوامش:

تحليق: هي آخر قصة كتبت في المجموعة القصصية الموسومة بـ "حيوات" لكتابتها (...) والذي دارت الكثير من الشكوك حول كيفية موته. حيث وُجد ميتاً في شقته وهو يجلس على كرسيه بينما كانت مسودة القصة ترقد في حجره وما زاد الحادثة غموضاً أن تحليل الطبيب الشرعي أقر بوجود نزيف داخلي وتهشم في العظام كنتيجة للسقوط من ارتفاع شاهق.

تداعي الذاكرة

رأيتها بشكل مقدمتها المخروطي تنطلق صوبي مباشرة، تدور حول محورها، تعبر المسافة بين فوهة سلاح الجندي وهدف ما في جسدي، شعرت حينها بهواء منعش يجتاحني ثم تسمرت في مكاني لا أقوى على فعل شيء. ساد المكان صمت كوني رهيب، لبرهة من الزمن خرست صرخات الجنود، صفير الريح، أزيز الطائرات، حفيف أشجار الغابة، الصوت الوحيد الذي تبقى هو صوت دقات قلبي التي ظلت تعلو... وتعلو.

في تلك اللحظة أدركت أنني عابراً الجسر لا محالة وتداعي كل شيء أمامي على هيئة مشاهد متداخلة بعضها مع بعض كمصباح زجاجي سقط على أرض إسمنتية . رأيت صورة أمي بوجهها الشبابي وملامحها الصارمة التي اكتسبتها بعد وفاة أبي منذ أمد بعيد. صوت أختي الصغيرة وهي توقظني من النوم طالبة مني مصروفها المدرسي، ابتسامتها، شعرها المضمخ بزيت الكركار وطرحتها المسدلة على كتفها. ضحكة حبيبي التي تشبه هديل الحمام، طعم قبلتها، أحلامنا البسيطة التي بذرناها في رحم الغيب واعتدنا رعايتها والسهرة عليها. جدي وهو يدخل من الباب الخشبي بظهره المحني كقوس محارب، حكمته الكبيرة، حديثه الهادئ، رائحة السدر التي تعبق من فمه. صديقي الذي وجدته في أحد الأيام حازماً حقيبتة ومرتدياً قبعته الأثيرة على قلبه ليخفي بعضاً من حزنه الأبدي، وقد قال لي حينها إن هذه البلاد أصابته بالغثيان وتقزم الحلم ، ثم لوح لي مودعاً وهو يعبر المسافة إلى إحدى دول الجوار علّه يستطيع إيجاد زاوية أخرى للنظر وإعادة ترتيب الأشياء، آه لو تعلم ، فالرصاصة التي قتلت أحلامك أعيد إنتاجها بصورة أكثر مادية لتقتل أحلام الآلاف من الشباب وتحلق بأرواحهم في سماء العدم .

ما زالت هذه الحياة تدهشني يوماً إثر يوم، فبين غروب شمس و طلوعها يتبدل كل شيء، بل في كل ثانية.. لذلك كثيراً ما فكرت وأنا طفل في عدد الناس الذين يولدون في هذه اللحظة، الذين يموتون، الحزاني، الفرحي، النائمون، الجوعى ، الذين يحملون نفس اسمي، و لماذا تحدث الأشياء بهذه الطريقة بالذات، فبين لحظة وأخرى يتغير كل شيء.

في ذلك المساء وبينما أنا نائم في مقعد الحافلة المتجهة إلى شمبات بعد يوم طويل من العمل، لم أفق إلا على صوت ذلك الرجل الذي لكزني قائلاً:
- "بطاقتك يا أبو الشباب " .

شعرت بالفرع وأنا أتحمس جيبي ولا أجد المحفظة، انتابني دوار خفيف قبل أن أرد عليه بتوتر ظاهر: "يبدو أنني نسيت المحفظة في مكان الشغل".

تم إنزالي مع شاين آخرين من الحافلة، وأمرنا بالصعود إلى صندوق شاحنة كبيرة، حاولت أن أشرح له أنني فعلاً أمتلك بطاقة ثبوتية، لكن حينها شعرت بضربة مؤلمة على مؤخرة رأسي ثم رميت في الشاحنة كجثة هادمة لأجد نفسي في صباح اليوم التالي حليق الرأس، مرتدياً زياً عسكرياً؛ قطعتي دمورية و حذاء محلي الصنع ربما تأكيداً لـ "نلبس مما نصنع"، كان شيء أسوأ من الكابوس بكثير ليتم شحننا بعد ذلك إلى الجزء الجنوبي من البلاد.

ألم أقل أن هذه الحياة تدهشني يوماً إثر يوم فحقك في الوجود مقرون بورقة صغيرة الحجم مكتوب عليها اسمك وتحوي صورة وجهك، يا للهراء!، فأنا لم أفكر يوماً أنني سأخوض حرباً لأي غرض كان، وحتى في هذه الحرب فأنا أجد نفسي متعاطفاً مع طرفها الآخر، لذلك عاهدت نفسي على عدم إطلاق رصاصة واحدة من بندقيتي، ببساطة لأنني لا أستطيع قتل إنسان، كانت فكرتي هي الاختباء في مكان ما إلى حين انتهاء المعركة ثم الرجوع بعد ذلك إلى المعسكر لكن يبدو أنها كانت خطة فاشلة.

رحت أفكر في الشيء الذي يمنحني أعظم لذة - فما أجمل من تفكير شخص على وشك الموت في الشيء الذي يمنحه أعظم لذة! - وهو تركي مثانتي تمتلئ بذلك السائل الأصفر حتى أحس بذلك الخدر اللذيذ يضغط على أسفل بطني ومن ثم ينتقل إلى أعلى فخذي وفي اللحظة الحرجة، اللحظة التي أشعر فيها بنشوة كبيرة أفرغه دفعة واحدة، كانت هي تلك اللحظة المثالية للموت، علت دقات قلبي إلى الحد الذي شعرت بها في كل جسدي، ثم اخترقتني الرصاصة وتبلل صدري بسائل دافئ. بعدها أحسست ببرودة طاغية و سقطت ملامسا بوجهي الأرض الرطبة، مستنشقاً عبق طينها للمرة الأخيرة لتغمض بعد ذلك يد الموت عيني.

ورقة الشيطان

في ذلك اليوم، كنا نحو خمسين تلميذاً جالسين في مقاعدنا، نتحدث في نفس اللحظة دون أن يصغي أحداً للآخر، مُصدرين همهمات مزعجة بشكل جميل، كسرب من الطير يُغرد على شجرة نيم. بينما نخط في دفاترنا الكلمات التي كتبها الأستاذ في السبورة بطباشير ملون، مستخدمين في ذلك أقلام الرصاص التي نُسبها أكثر مما نكتب بها؛ وكل واحد منا يحاول إيجاد الطريقة المثلى لإمسك القلم؛ أما الذين انتهوا ففي شأن آخر، يتنافسون في عدد علامات "الصاح" التي حصل عليها كل منهم في دفتره بقلم أستاذ مؤمن، الجالس في هذه اللحظة عند مقدمة الفصل، يشتغل على بعض الأوراق، يرفع رأسه من حين لآخر ليشير لنا بالهدوء قليلاً.

كنت قد شارفت على إنهاء الكتابة عندما اصطدمت بحقيقة امتلاء دفترتي تماماً، فأخذته واتجهت نحو الأستاذ، عله يسمح لي بإتمام الواجب في البيت و تصحيحه في يوم الغد. تناوله مني وأخذ يقلبه ثم قال موجهاً نظره نحوي:

- أكتب هنا، مشيراً بسبابته إلى الصفحة الأولى في الدفتر.

ذهلت أول الأمر، ألا يعلم أستاذ مؤمن أن هذه الورقة ممنوعاً الكتابة عليها بتاتاً، ويجب أن تبقى خالية ونظيفة للأبد. لأنها حسب ما نعلم - دون معرفة مصدر هذه المعلومة - ورقة خاصة بالشيطان، لذلك رددت عليه شارحاً: لكن يا أستاذ دي ورقة الشيطان.

ابتسم ابتسامته الصافية التي تمنح فمه شكل قوس، ووضع يديه على كتفي وأردف:

- أكتب فيها، وإذا سألك الشيطان فهي مسئوليتي .

حسناً، سأكتب فيها - قلت مخاطباً نفسي، فإضافة إلى أنه أعلن مسئوليته ففي نهاية اليوم سأترك له الدفتر وأذهب إلى البيت خالي الوفاض من الشيطان وورقته. رجعت إلى مقعدي وبدأت الكتابة على الصفحة فيما كانت تحاصرني نظرات الرفاق الوجلة، وهم يستنكرون فعلتي. متعددين ما يمكن للشيطان فعله بي ، راسمين له صوراً مختلفة. ليس ابتداءً من أنه "مرفعين" ولا انتهاءً بأنه "حيوان ذو سبع رؤوس" يأكل الأطفال الذين لا يطيعون أهاليهم .

مر اليوم بسلام وفي طريقي إلى البيت والتسكع في الطرقات رفقة الأصدقاء تناسيت الأمر، لكن في صبيحة اليوم التالي لاحظت غياب أستاذ مؤمن عن طاوور الصباح

الذي كان هو مشرفاً عليه، ورغم أنه تغيب عدة مرات إلا أن عقلي ربط غيابه بما حدث يوم أمس؛ وما زاد من قلقي أنه لم يحضرنا في الحصة الثانية. وبعد مشاورات عدة هرعنا إلي مكتب المدير وأخبرناه بالحكاية، اكتفي بابتسامة و طلب منا عدم القلق والرجوع إلي الفصل.

لم أستطع التركيز في حصة الرياضيات التالية، كنت ساهياً وأفكر أنني المذنب في ما حدث، تفرقت عيني بالدموع وأوشكت على البكاء. لكنني أعلمته أن هذه الورقة محرم الكتابة عليها - فكرت معزياً نفسي .

بعد نهاية الحصة كان قد تبقى لفسحة الفطور ما يقارب الربع ساعة، وبعد خمسة دقائق دخل أستاذ مؤمن الفصل، نظرت إليه كأني أراه لأول مرة في هيئته البهية، وجهه الممتلئ قليلاً، قميصه المحشو في ثنايا بنطاله ، قلم التصحيح أعلى جيب القميص والأهم حذائه الأسود اللامع . ألقى علينا التحية وكعادته لم يأمرنا بحركة قيام/جلوس التي لم نكن نفهم مغزاها. وقص علينا قصة ما زلت اذكرها للآن. كانت القصة عن امرأة تقوم بتقطيع السمك إلى شرائح في كل مرة تقوم بعملية الطهو. وفي إحدى المرات سألتها زوجها مستفسراً، فأخبرته أنها كانت ترى والدتها تفعل الأمر نفسه وبعد فترة زارت المرأة والدتها وسألتها عن السبب، فأخبرتها الأم: حينها كان الإناء ضيقاً.

بعد انتهائه من الحكاية سألنا عما استنتجناه من هذه القصة، سمع تعليقاتنا وآراءنا التي تراوحت ما بين الجد و الهذرثم اختتم كلامه قائلاً : يجب عدم تقبل أي شيء دون إمعان النظر، وعليكم باستخدام هذا - مشيراً إلى رأسه

كان ذلك العام الأول والأخير لي الذي أرى فيه أستاذ مؤمن، فبعد نهاية الفصل الدراسي انتقلت برفقة أسرتي إلى جزء آخر من المدينة . وبذلك تغيرت المدرسة، الأصدقاء، الشوارع وكل الأشياء؛ لكن إلى اليوم وفي كل مرة أجد ورقة خاوية ونظيفة في مقدمة كتاب أو كراسة إلا وابتسمت.

وردتان وبنت

الجندي الذي ابتسم للبنت الصغيرة وأهداها وردة وهو في طريقه إلى المعركة، هو نفسه عدو الجندي الآخر الذي ابتسم لنفس البنت وأهداها وردة وهو في طريقه إلى ذات المعركة. مضى الآن على المعركة شهر والبنت تجلس في حديقتهما كل مساء منتظرة عودتهما.

تقاطع

(١)

الفتاة الشابة، التي في طريقها إلى منزل صديقتها، لن تنسى عصر هذا اليوم ما حييت، والمشاعلة اللطيفة من قبل الفتى المتكى على عمود الإنارة بسنواته الستة عشر. فحينما عبرت أمامه استحضر الفتى كل ما يجيش بداخله من صور جمالية، علا خفقان قلبه لينبعث بداخله مقطع أغنية كان قد سمعها منذ فترة. تدفقت الكلمات من ذاكرته إلى شفثيه لتتمطيان بصوت هامس لكنه مسموع ب: " الليلة وين أنا يا البعصر مرورو " ثم دون وعي منه وجد نفسه يضيف المقطع التالي والذي لم يكن ضمن الأغنية "الأسمر الماشي سحرتني عيونو "

(٢)

الشاب الوسيم بسنواته الثلاث وعشرون وعينيه اللتان تقطران حزناً، الحزن الذي تولد في نفسه ذات مساء قديم، حين التفاتة صبية بلون وجه يشبه ثمرة نبق ناضجة، كانت ترتدي فستان أبيض موشي برسومات أشجار صغيرة، فبدت له في هيئتها تلك كغابة وهي تلتفت إلى الوراء لتنفج شفثيها عن ابتسامة، فيما تخللت مسام وجهها بأشعة المغيب الذهبية.

لم يستطع الفتى النوم مساء ذلك اليوم، ظل مستيقظاً طوال الليل وهو مستلق في سريره القابع وسط حوش المنزل، يرقب الأفق ويحاول إيجاد تفسير لما اعتراه. وإلى الغد سيكون هذا الشاب مؤرق إزاء الشعور الذي انتابه، والذي كان مزيجاً من الاندهاش، الفرح وسحابة من الحزن .

هذا الشاب أكثر حزناً الآن. فقبل برهة من الزمن وإثر إقباله على عبور أحد شوارع العاصمة المزدهمة لمح في الطرف الآخر من الشارع بنت جميلة بصورة فادحة، أراد لحاقها، لكن بعد عبوره الطريق كانت الفتاة قد اختفت وسط الزحام. جال بعينيه باحثاً عنها فلما لم يجدها اكتست عينيه الحزنتين أصلاً حزناً إضافياً .

(٣)

في اللحظة التي وقف فيها الشاب حزيناً في الرصيف بعد أن أضاع فيها الفتاة وسط الزحام. كانت ذات الوجه النبقى بجسدها الذي أكتسب أنوثة طاغية في مكان ما من هذه البلاد قد تذوقت رحيق قبلتها الأولى للتو. شعرت بدفء بركاني يسري في امتداد شفثيها، خفق قلبها كطبل، تدفق نهر من الغبطة في مسامها؛ النهر

الذي بدأ تدفقه ذات عصر، حين سمعت صوت كحفيف الأشجار يلاطفها ب:"
الليلة وين أنا يا البعصر مرورو".

فبعد وصولها إلى منزل صديقتها كانت مرتبكة، احتضنت صديقتها التي ظلت
مشدوهة لخمس ثوان قبل مخاطبتها بي:

- في شنويا مجنونة .

- ندخل جوة وبحكي ليك .

(٤)

في عصر اليوم التالي وقف الفتى في نفس وضعيته تلك مع بعض التغيرات على
هياأته، فقبل خروجه من المنزل صفف شعره الغزير، وضع ثلاث بخات من قارورة
العطر التي سرقها من دولاب أخيه الأكبر، نظر إلى نفسه في المرآة المهشمة للمرة
الخامسة ثم خرج يملأه الأمل.

(٥)

في اللحظة التي تسرب اليأس إلى قلب الفتى وهو في اتكأته تلك بعد انتهاء حفلة
النهار بميقات العصافير العائدة إلى أوكارها. كانت البنت ذات الوجه النبقى شاردة
الذهن وهي تحديق من نافذة الباص المتجه إلى مدينة القضارف، حيث ستقيم
برفقة أسرتهما نتيجة لنقل والدها، الموظف الحكومي إلى هناك. لكنها ابتسمت
حينما تذكرت الرسالة التي كتبها للفتى الشاب وأوصت صديقتها وهي تودعها قائلة:
- عليك الله وصلي ليهو الرسالة دي يا نوار.

جمرة النار

حسناً لقد خدعناك! لكننا فعلنا ذلك من أجلك أنت، فبعد تعرضك لذلك الحادث عاش كل من في البيت حالة من القلق شديد، استمرت طوال مدة مكوثك في العناية المكثفة فاقداً للوعي. وبعد شهرين كاملين لم يكن أحد ليصدق أنك ستنجو من الموت. كان الأمر معجزة بالنسبة لنا. فرحنا أيما فرح ونحن نشهد تحسن حالتك يوماً بعد يوم. وقد طمأننا الطبيب على سلامتك الذهنية وأن فقدان الذاكرة الذي تعاني منه مؤقت وستشفى منه مع الزمن، وهذا ما حدث فعلاً. لكن كان هنالك أمر وحيد لم نجد له حل وهو عدم استجابتك لعملية العلاج الطبيعي والتي كان من المفترض ألا تتجاوز الثلاث أشهر حتى تتمكن من المشي مجدداً بعد التئام الكسور التي أصابتك في رجلك اليسرى والتي كانت في الساق وأعلى الفخذ بالإضافة إلى كسر في يدك اليمنى - أعلى العضد. لكن للأسف هذا ما لم يحدث، ببساطة لأنك كنت تعتبر هذه التمارين سخيفة وتشكك في قدرتها على جعلك تستعيد حركتك الطبيعية من جديد، بل كنت تعتقد أنك مصاب بالسحر من قبل زميلك في المؤسسة والذي كان ينافسك في موقعك كمدير إداري: " فضل الله هو العمل لي العمل - هكذا كنت تؤكد دائماً" وهنا بالضبط كان دورنا، تمادينا معك في اعتقادك الزائف وجعلناه يبدو كإيمان راسخ. خاصة وأنت - كما أخبرني جدتي - تعتقد في أمور الجن والسحر منذ الصغر. لذلك قمنا باستبدال ممرضة العلاج الطبيعي بأخرى هي " فايذة " التي كانت تأتي خلال الشهرين الأخيرين؛ وهي ليست سوى والدة زميلتي أسماء من أيام الجامعة حيث أقنعناها بعد كثير من النقاش والجدل بتأدية هذا الدور، وبعد أسبوع من الرفض وافقت على الخطة: "كل ما عليك فعله هو القيام بنفس التمارين والحركات الطبية بالإضافة لبعض الطقوس والتي تتمثل في وضع بعض حبات البخور على جمرة النار ثم تمرير الدخان المتصاعد على كل جسده وهو مغمض العينين مع ضرورة الهمس ببعض الكلمات غير المفهومة ليكتمل رسم الصورة في مخيلته. لكن أهم ما في الأمر هو جعلك إياه يثق فيك كلياً".

وبذلك بدأ العمل يسير بصورة مثلى ، كان من المفترض حضورها ثلاث مرات فقط في الأسبوع، لكن مع إصرارك المستمر أصبح حضورها يومياً، ولقد نجحت هي بصورة مذهلة في تأدية دورها، لدرجة أنها كانت تضع بعضاً من العطر الذي يصيبك بالراحة النفسية؛ والذي لم يكن سوى أحد العطور التي كنت تحبها، عطر

(بلو - Blue) إذا كنت تذكر، وفي مرات أخرى كانت تأتي بخرزات الودع وتقوم بقراءة مستقبلك، مؤكدة تعافيك ورجوعك إلى العمل .
 أعلم أنك تشعر بالاستياء الآن! لكن صدقني يا عمي لم تكن ثمة من طريقة أخرى .
 حتى أنا في البدء لم أقتنع تماماً بنتائج هذه الطريقة . وبما أنك عرفت الحقيقة الآن فأسمح لي بإكمال الحكاية وبعدها قل ما شئت. فمهما ستفعل فأنا مستعد لتقبله.
 كنت أشتغل على بعض الأوراق حين أتنى عزة وهي فرحة للغاية، تصرخ: وجدتها، وجدتها. كانت تحمل كتاب من تلك الكتب التي تمتلئ بها غرفتها. ماذا كان أسم المؤلف؟ ممم لا أذكر لكنني أستحضر أسم الكتاب جيداً كانت رواية باسم "بقايا القهوة" وبدأت في قراءة اقتباس كان المؤلف قد أورده في الصفحة الأولى - لن أنساه أبداً:

"لا توجد أشياء زائفة. يكفي قليل من الإيمان لكي يصبح كل شيء حقيقة "
 هكذا قرأت هذه الكلمات بفرحة المنتصر. لم أفهم ما ترمي إليه في البداية حتى قالت: "أبي يحتاج إلى الإيمان بفاعلية العلاج "
 وهكذا كل ما فعلناه. أن صنعنا سيناريو حقيقي وصادق لمسرحية شيخة " فائزة "

دعني أكمل أرجوك !

أتذكر تلك المياه باهتة اللون؟ التي تحضرها معها فائزة " المحاية" لم تكن إلا الأدوية التي كنت ترفض تناولها، كنا نذيقها في قدر قليل من الماء ثم نعطيك إياها وقت الجرعة المحددة. أرى ذلك التساؤل في عينيك! نعم لم تكن تحوي أي طلاسـم سحرية أو آيات قرآنية فقط القليل من اللون .

أخيراً، أنا لست نادم على هذه الفعلة مادام أنها انتشلتك من بحر اليأس الذي كنت غارقاً فيه ، وأعادت إليك بريق حياتك السابقة .
 لقد انتهيت من سرد كل التفاصيل يا عمي، والآن يمكنك الحديث.

المُعَلِّم

يجلس على ماكينة من الطوب الأحمر، يخرج قارورة من كيس النايلون الملفوف بعناية، يفتحها ببطء، ليعبق المكان برائحة العرق المميزة، ثم يشرع في أداء صلاة الكأس بكل خشوع، يفرغ القارورة إلى آخرها وهو مغمض العينين، وكأنه يغوص في دهاليز ذاته، يعبر صحراء لا قرار لها، يخلف وراءه حضارات و أجيال، يحتفي بكيونته، يفتحهما بعد برهة من الزمن مذهولاً كغريق على وشك الهلاك، يحملق في الفراغ الذي أمامه؛ الفراغ الذي يعني له ضياع الإنسان، غربته، حيرته، بؤسه، عدميته، ولا جدواه أيضاً، لطالما اعتقد أن كل من انتحر، جُن، كفر بوجود إله، شكك في وجوده، حرقتة الأسئلة، كل ذلك كان بسبب هذا الفراغ؛ الفراغ الذي حاول أن يملأه بثلاثي البحث عن معنى – كما يسميه: السفر، الجنس، والخمر.

كور سفة سعوط بحجم ثمرة لالوب، وضعها في جيب شفته السفلي، كان يراقبهم وهم يجهزون حوض المونة، ينقلون الطوب كي يباشروا العمل، في إثناء ذلك أشعل سيجارة من نوع بينسون، ولم يدخن منها شيء؛ اكتفى بمشاهدة النار تسري في روح التبغ، تذكر ذلك المشهد من فيلم طروادة، عندما قال أخيل العظيم: " إن الآلهة تحسدنا على الفناء؛" ما إن سمع تلك الجملة حتى تبادر إلى ذهنه منظر الفراشات التي تقترب من مصدر الضوء بالرغم من علمها أنه الفناء إلا أنها لا تقدر على كبح نفسها، تذهب إلى الضوء بغنج فتاة أفريقية عاشقة، وفي تلك اللحظة تحديداً – لحظة الفناء- عندما تقترب من الضوء وتتحد معه تشعر باللذة. أسبوع وهو يفكر في تلك الجملة، يتعمق فيها، يحاول أن يفسرها؛ يقلبها عسى أن يكتشف بعداً آخر، يفكر في ماذا لو كنا خالدين؟ يا إلهي! كانت الحياة ستكون أكثر بؤساً، دائماً ما يفكر في الموت كمفتاح للغز الحياة.

هو في نهاية العقد الرابع من العمر، باهت الملامح، من نوعية الأشخاص المنسيين، الغير ملاحظين، ذو بشرة يميل لونها للسواد، متوسط الطول، أسنانه الأمامية متآكلة بفعل السعوط، عيناه صغيرتان و غائرتان في تجاويفهما، تكسوه مسحة حزن واضحة كني كذبه قومه، ما إن تراه حتى تظن انه يبكي، له عرجة خفيفة في رجله اليسرى، يخدعك مظهره فتظن أنه لم يتجاوز الثلاثين بعد؛ وكأن معول الزمن لا يعمل على جسده، قدم إلى هذه المدينة قبل ما يقارب السنة ونصف، استأجر بيتاً صغيراً عند نهاية الحي من الناحية الشرقية، منزله مكون من حمام،

مطبخ، و حجرة وحيدة هي غرفة نومه؛ يتوسط الغرفة سرير مقابلاً لمروحة السقف، طاولة هرمة، رف به بعض الكتب، لمبة نيون تزين الحائط، لوحة لبوب مارلي، راديو ترنسزستر قديم، شماعة ملابس بها بنطالي جينز و قميصين؛ أحدهما ابيض مشجرو الآخر رمادي.

لم نكن نعلم أن اليوم هو الأخير له هنا، فقد كان يوماً عادياً كغيره، بدأنا العمل بعد أن فرغ هو من طقوس كيفه، و فرغنا نحن من تجهيز المونة، كنا سعداء لأننا اليوم سوف ننهي العمل في هذا المبنى؛ إضافة إلى ذلك أن اليوم هو الخميس؛ الذي من أجله يباع القميص -كما يقول المثل، توقفنا عند الحادية عشر للإفطار، الفترة التي نحب، وذلك لأنه يمنحنا نصف ساعة للراحة لكن ما يجعلها مميزة أنه يقص علينا حكاياته الشيقة، عن كلية الفنون التي في العاصمة، وقد تخرج منها قبل عشرين عاماً، عن سفره إلى فرنسا، و حياته هناك لمدة سنتين، عشق خلالها، ضاجع كل امرأة مرت عليه، سافر كل مدنها، أقام معرضه الأول، حصل على عدة جوائز في النحت، زار برج إيفل، شارع الشانزليزيه، الحدائق، متحف اللوفر، استمع للأوبرا، زار معارض الفنانين القادمين من مختلف دول العالم، ثم عن عودته إلى هنا، وسفره إلى كل مدن السودان، كان دائماً ما يحكي لنا عن اندهاشه بنمط الحياة و أشكالها في تلك المدن البعيدة، عن حياة الأمبرور الذين يسكنون الدمازين ، عن النوبيين في شمال السودان، لغاتهم عاداتهم و عن النوبة في كردفان قبائلهم، كجورهم، طريقة دفنهم للموتى، مواسم حصادهم. عن البجة في شرق السودان، الهدندوة، البني عامر؛ تداخل لغتهم مع الأثيوبيين، عن جبل مرة و الذي يقول عنه أن الله بذل مجهوداً جباراً ليخرجه في ذلك الرونق المدهش، كان دائماً ما يردد أن الحياة بائسة و أنه يحاول عيشها بطريقة أقل بؤساً، لم نكن نفهمه في كثير من الأحيان، و في إحدى المرات سألتناه بتعجب عن السبب الذي جعله يترك كل ذلك و يرجع إلى هنا، كان دائماً ما يرد: لا أعلم!

في المساء رجع إلى بيته بعد زيارته لحي برلين وأخذه حصته من العرق الجيد الذي تعده النساء هناك، بعد تناول العشاء شرع في رسم جدارية لهم الثلاثة، وهم يقفون أمام نهر عظيم، ينظرون لمشهد غروب الشمس، انتهى من الرسم قبل الفجر بقليل، فكر في كتابة رسالة، بدأ في كتابتها، ثم مزق الورقة وقال مخاطباً نفسه: اللوحة وحدها تكفي.

في الصباح لف اللوحة في قطعة قماش، أخذها إلى السوق الكبير، ليودعها عند
حاج الصافي - التزني الأقدم في السوق، أوصاه بأن يعطيها إياهم، ودعه وأخبره
أنه مسافر، سألته حاج الصافي بصوته الهش:

- على وين يا زول ؟

- لا أعلم!

وداع على ضفة السين

”عندما نحلم بأننا نحلم فتلك بداية اليقظة“

نوفاليس

لم يكن يوماً مختلفاً عن بقية الأيام، في الصباح الباكر استقل الحافلة إلى حيث يعمل مدققاً لغوياً بجريدة المساء، كعادته كان ساهياً يحدق عبر النافذة، يمرر عينيه على اللافتات المعلقة فوق أبواب المحال التجارية باذلاً جهده كي لا يفوته قراءة أيا مما كتب عليها، لم ينتبه وهو في شروده ذاك إلى عدد المرات التي توقفت فيها الحافلة، من نزل، من صعد حتى أنه لم يسمع طقطقات أصابع المحصل المتكررة طالباً منه قيمة التذكرة، لكن - ولكن هذه دائماً ما تحمل معها تغير في مجرى الأحداث - ما إن تسلل ذلك العطر إلى مسام أنفه حتى أيقظ بداخله ذلك الحلم، تلك الذكرى، الشاطئ، الأغنية، الشيء الأهم ملامح وجه الفتاة التي تنام على امتداد ذاكرته.

كان يجلس إلى إحدى الطاولات في أحد مقاهي مدينة باريس، يُدون بعض الملاحظات على الدفتر الذي أمامه فيما ينفذ من حين لآخر عقب سيجارته .
- أسمح لي بالجلوس .

صوت عذب يعبر إلى أذنيه، ينتشله من بحر تركيزه، يرفع رأسه ليرى صاحبة الصوت، تصطدم عيناه بالفتاة الواقفة أمامه، الفتاة ذات الشفتين القرمزيتين، كانت عيناهما متسعان كمحيط، ترتدي فستان ابيض بدون أكمام، يصل إلى منتصف ساقها، وشعرها الذهبي مسدل على عنقها، تحمل على يدها زجاجة صودا فيما آلة جيتار معلقة إلى ظهرها، وقف مشدوهاً للحظة قبل رده عليها باقتضاب وارتباك خفيف:

- تفضلي .

- إيلينا، مغنية في فرقة بوب صغيرة، قالت الأخيرة بمرح وهي تصافحه بعد جلوسها

- ينادوني جو، صحفي ولي محاولات في كتابة الشعر.

- شيء جميل، أنا أيضاً مهتمة بالأدب.

ثم دار بينهما حوار أستمرا لأكثر من ساعة، تطرقا فيه للأدب، الفن، والحياة، عن دور إدواردو غاليانو في رفد الأدب بنوع مميز من الكتابات و محاولاته البديعة في

رواية تاريخ أمريكا اللاتينية بطريقته الخاصة؛ استحضرا مقولات من كتبه و ناقشاها، تحدثا عن تشابه نمط الحياة بين أمريكا اللاتينية و أفريقيا الشيء الذي أدى إلى تشابه أدب وفنون القارتين، عن واقعية ماركيز السحرية و تقاطع شخوصه مع بعضها في أغلب أعماله، عن الذاتية التي يمتاز بها أبطال باتريك زوسكيند وعلاقتهم المضطربة مع العالم الخارجي؛ عن روايته الحمامة بالتحديد، قال لها مبتسماً:

- لكل شخص حمامته التي يهاها.

- الحمامة هي الآخر المختلف عنا، ردت عليه.

تحدثا عن الرسم، عن هنري ماتيس، فان جوخ، بيكاسو، عن الوجودية عند سارتر، عن الأديان، الفلسفة، نقد العقل عند كانط، كانا يتحاوران كأنهما يعرفان بعضهما منذ سنين ، اتفقا أحياناً و تباعدا في الرأي أحياناً أخرى .

انتهت إلى اقتراب موعد الحفل الذي تقيمه فرقتها لصالح مجموعة من الأطفال ذوي احتياجات خاصة، دعتهم ليرافقها، كانت لطيفة بحيث أنه لم يستطع الرفض. في طريقهما إلى الشاطئ مرا بمحلات الأزهار، المكتبات الصغيرة، معارض التحف الفنية. وصلا قبل العرض بخمسة عشر دقيقة، عرفتة على باقي أفراد الفرقة ثم بدأ العرض الذي استمر لأربعين دقيقة، كانت الفرحة بادية على وجوه الأطفال وهم يتميلون مع اللحن و صوت المغنية الهادئ، ليختتم بعد ذلك بأغنية تخللت كل مسامه، واهتز لها بطرب باين.

بعد العرض جلسا على شاطئ النهر يرقبان مشهد الغروب وإعلان الشمس عبر تورد وجهها الأحمر انتهاء النهار، طلبت منه قراءة إحدى قصائده، أخرج الكراسة من الحقيبة ثم قرأ :

ينبعث اللحن أكثر حزناً

لأنك لست هنا

كي تشرقي في فضاء الروح، الروح المرهقة

كريشة تملصت من جناح طائر.

في تلك الشقة كان صوت المنبه يعلو شيئاً فشيئاً وقبل برهة من استيقاظها حضنته وقبلت خده على وعد الالتقاء في حلم آخر، استيقظت إيلينا وكان أول ما فعلته أن دونت أبيات القصيدة العالقة بذهنها في دفترها، و في الطرف الآخر من العالم استيقظ جمال بعطر العناق الأخير، به طرب للأغنية التي أختتم بها

الحفل، الأغنية التي لا يعلم بأي لغة سمعها فأصطلح على تسميتها: " وداع على ضفة السين". منذ تلك اللحظة وهو يبحث عن إيلينا حتى أوشك على نسيانها لولا أن باغتته رائحة العطر التي إعادة له كل شيء، فللعطر ذاكرة لا تهرم .

عند نزوله من الحافلة توجه بالحديث للصبية الجالسة على مسافة منه قائلاً:
عطرك أجمل مما ينبغي.

جدارية الليل

ابتدأت الحفلة بطريقة غير متوقعة، وفي زمن غريب أيضاً، فأغلب الأشياء هنا هكذا... تبدأ دون تخطيط مسبق وتنتهي على نفس الشاكلة، العراق ، البكاء، ممارسة الجنس، الموت، وحتى ولادة الأطفال .

فبالأمس، وبعد منتصف الليل بقليل - في الواحدة وسبع دقائق تحديداً - والكل يتوسد حيزه من الرصيف، يلتحفون أمانهم بعد يوم آخر طويل وشاق، مُخدرين وشبه نائمين. يُحلقون في سماء عالم مختلف، بفعل المادة التي تستكشف أماكن جديدة في ثنايا قطعِ قماشٍ ألفتها أفواههم؛ تمتزج بعد ذلك مع لعابهم، ويزلّ الخليط، يتسرب تأثيره مغطياً مساحات وعيهم ، فيشعرون بالسكون والدفء، فهنا بقدر غيابك يكون دفؤك.

وهم في حالتهم تلك سمعوا أنات كمواء قط صغير، ظنّها البعض منطلقاً من حلم يقظة عابر، لكن عندما تكررت عدة مرات اتجه بعضهم إلى مصدر الصوت بكسل لذيذ، يجرون أجسادهم التي ثقلت عليهم . ليكتشفوا أن مصدر الصوت هو تنقا المنكفي على جسده النحيل، مرتجفاً كعصفور اندلق عليه سطل ماء بارد، حتى يسمع صكيك أسنانه مع بعضها ، فيما تنساب قطرات متقطعة من الدمع عبر تشققات وجهه الأغبش. تكلم بمشقة، أخبرهم بأنه يشعر بشيء بارد يتحرك من أسفل معدته إلى أعلى صدره. كانت تدور في عقله الخصب دوامات من الأسئلة عن طعم الموت، و لماذا يموت الأطفال في هذه الأرضفة دون أن يستمتعوا بالحياة، الشيء الوحيد الذي يتمنى ألا يصيبه قبل تحقيق حلمه الأكبر المتمثل في مشاهدة فيلم هندي في السينما؛ فقد قص عليه دوشكا كثير الحكايات عن متعة هذا الأمر...هو الآن يتخيل نفسه محمولاً فوق عنق دوشكا ليتمكن من رؤية المشهد المنتظر منذ الأزل: يتقدم البطل نحو حبيبته، تتقدم نحوه. يفتح ذراعيه، تحتضنه. يزبح خصلات الشعر المبعثرة على وجهها، تلتقي أنفاسهما الدافئة، ثم يذوبان في قبلة بعمق قصيدة صوفية. في تلك اللحظة تتسع عيناه الصافيتان إلى آخرهما ، يكبر إنسان عينه إلى الضعف ، يبتلع المشهد بكامل تفاصيله. يصفق ، يصفر، يقفز عالياً من كتفي دوشكا، يندهش: (ديناااالك) ، يحتفي مع الأصدقاء أمام الله ، الملائكة ، والحضور الذي يشرع في سبه بذريعة التشويش عليهم. هم فقط يحسدونه، يودون لو يفعلوا الأمر عينه. لكن أناهم الزائفة تمنعهم وتقلّم أظافر إرادتهم .

قطع عليه دوشكا حلم يقظته ذاك بقوله : (ما حا نخليك تموت يا ود الكلب). دوشكا الصارم دوماً بعينيه التائمتين في الفراغ، تكسوه قسوة مصطنعة، لتحافظ على هيئته كزعيم مشردين أصيل، هو متعلق بتنقا إلى حد كبير، الأمر الذي حاول تجنبه ليس لشيء سوى انتفاء رغبته في التعلق بشخص أو شيء لا يضمن بقاءه. ورغم ذلك لم يفلح؛ لأن للقلب منطقته الخاص. فمنذ ظهور تنقا فجأة كقبس ألقى به من السماء ، بشخصيته المرححة وابتسامته تطوق عنق المكان المسمى مجازاً بيت، تعلق به إلى أقصى حد ، أحبه محبة أخ أكبر، احتواه بكل ما يسع القلب، حكى له عن أزمان ماضية، عن السينما وقوانين التسكع. عن حيوات أسلافه من المشردين والأصدقاء الذين عبروا جسر الغياب وكأنه شاهد على التشرد منذ نشأة الكون . هو يعتب على تنقا في شيء وحيد فقط، أنه لا يتعاطى (السلس) المادة التي دائماً ما يفكر: أنها صنعت خصيصاً لهم ، وليس لإطارات السيارات كما يُروج له. وإعراض تنقا لم يكن لدواعي أخلاقية ، بل لأنه بمجرد وضعه قطعة القماش في فمه حتى يستفرغ كل ما في جوفه ويوشك على الهلاك .

خلع دوشكا أسمال ملابسه المتسخة عن جسده الضخم قطعة، قطعة. رماها على جسد تنقا محاولاً تدفئته من لسعات البرد، ثم تبعه بعد ذلك كل من فكة ،كودي ، أدماي ، نادية ، ثم جوك، وبقية المشردين ، الذين كانوا نحو ثلاثين شخصاً. ليمسي تنقا كومة من الملابس الممزقة التي تطفو في عفونة عتيقة. أحس حينها بحميمية اللحظة وبأنه أكثر شخص محبوب على امتداد الأرضة، وربما العالم ككل. شرع يحدق فيهم من تحت كومة الملابس وهم في كامل عريهم، البرد ينهش أجسادهم كسرب من أسماك البيرانا المفترسة. ليتفرقوا بعد ذلك في كل الجهات. جمعوا الكثير من الأوراق ، الأوساخ ، وكل ما يثير شبق النار، أشعلوها بقرب جسد تنقا الصغير. فانطلقت ألسنة اللهب تعلو شيئاً فشيئاً، تحلقوا حولها على شكل دائرة. وكشيء معد له مسبقاً ابتدأت الحفلة على أنغام صوت جوك العذب وهو يشدو بلغته المحلية لحن أغنية قديمة ؛ فيما كانوا يتحركون حول النار ، مصدريهم همهمات منتظمة بعد نهاية كل مقطع من الأغنية كأنهم جوقة في كورال سماوي. رقصوا بحرفية عالية لتنعكس ظلالهم علي الحائط خلفهم، راسمة بذلك أعظم جدارية في ذاكرة الكون. قوامها أشعة النار، الموسيقى، وأجسامهم العارية؛ التي بدت كأشباح بديعة خرجت من العدم لتمارس رقصة الظل.

تلاشي

إلى أ. غ :

تلقي نظرة أخيرة متفحصة على المكان، الغرفة المعتمة، الجدران العالية، والسقف الذي طالما سافرت عبره إلى عوالمك غير المتناهية .

احد عشر عاماً من العتمة، الليالي الموحشة المليئة بالهواجس والهذيان، الأرق والحنين. حاولت التغلب عليها بالقراءة والتفكير الدائم، أرسلت خلالها آلاف الرسائل إلى الأسرة والأصدقاء كانت هي التي تمنحك شعوراً بأنك بينهم، وعندما تصلك رسالة منهم تشعر بفرح طفولي. كتبت العشرات من الأوراق عن السياسية، المسرح والأدب، الأغاني والرقصات القديمة، دخنت بشره برغم الوهن الجسدي وتدهور الصحة الذي لازمك منذ طفولتك المبكرة وأضحى سيئاً هنا. لكنك استطعت البقاء بعيداً عن الجنون، استطعت المحافظة على سلامة عقلك.

والآن حانت اللحظة التي ستغادر فيها، أنت لست نادماً على شيء البتة. كنت دائماً ما تزن الأمور بمقياسك الخاص، تعزي نفسك بالخيالات التي تصنعها، تتذكر جلوسك وأنت في التاسعة أمام تلك البحيرة، كنت تستنشق رائحة الطين، تغمض عينيك لتصغي إلى تكسر الموج عند الشاطئ، تفتح عينيك لتصطدم بسقف الزنزانة البعيد، تغمضهما مرة أخرى وتتخيل ابنك الذي لم تشهد نموه إلا عبر الصور يجلس في نفس مكان جلوسك ذاك وتجري معه حواراً متخيلاً. في مرات أخرى كنت تتخيل أمك تتأمل صورتك في نفس اللحظة التي تنظر أنت في صورتها التي وصلتك مع آخر رسالة منها. تشعر بأسى لأنك لن تستطيع تحقيق عناقكما الموعود، فأنت قد تمكنت من المحافظة على نفسك رغم كل شيء من أجلها، من أجل أبنائك و زوجتك، من أجل رفاقك ومبادئك، لكن الموت فرض نفسه، قال كلمته وحلق بروحها بعيداً، هي التي كانت دائماً المقربة إلى قلبك. كان خبر رحيلها هو الصدمة الكبرى خلال هذه السنوات .

لقد تمكنت بهذه الطرق والعوالم المفترضة التي تخلقها من التغلب على كثير من الصدمات. واليوم يبدو تماماً نجاح هذه الطريقة، فها أنت على بعد أقل من خمس دقائق لتخرج من هنا بصورة نهائية، لتعانق الضوء، لتعانق حريتك. تلقي نظرة متفحصة على المكان من حولك، الغرفة التي شهدت لياليك العصبية، وأفراحك العابرة.

ينفتح باب الزنزانة ويندهك الحارس بصوته الأَجَش طالباً منك الخروج، تتقدم نحو الباب بخطوات بطيئة، الجسد الذي تداعى بفعل الزمن يثقل عليك، تعجز ساقيك عن حمل جسمك. لكنك تقاومه برغبتك الجامحة في معانقة الضوء الذي يجذبك.

على بعد خطوة من الباب تخلص عنك نظارتك ،يجهر الضوء عينيك، تمسحهما بقميصك ثم تغمضهما لبرهة. لتمارس لعبة التخيل التي ابتكرتها هنا، كنت دائماً ما تقاطع مصائر حيوات مختلفة مع بعضها، تكون عبارة عن لحظات فعل مشترك. ها أنت تتخيل أو ترى - فالأمريسيان بالنسبة لك - فراشة تقترب من ضوء المصباح ، تحلق حوله لثوان ، تتسلل إليها حرارته، يغريها التوهج، يصيبها بلذة عظيمة ومن ثم تقترب منه، تقترب أكثر ثم أكثر.... هنا تفتح عينيك، تخطو أولى خطواتك إلى الخارج، يبتلع ضوء النهار المتدفق كنهج جسدك، يروي ظمأك القديم، فتعانق النور الذي اتخذ أشكالاً لأشخاص وأشياء عدة، والدتك، أصدقائك، أحلامك، أبنائك، زوجتك، وأخواتك المشاغبات. يسحب منك خيوط العتمة، تشعر بنفسك شفافاً ومضيئاً، تنماهى في الضوء، تتخفف منك، تخور قواك تماماً، تشهق بصوت شجي، ثم تسقط على الأرض.

"النصوص"

ملاحظة تأملية : ثنائية الجمال والرعب

لنتخيل امرأة شابة، في نهاية العقد الثاني من العمر، ولنفترض أنها غاية في الجمال - بمعاييرك أنت - كانت تجلس أمام المرأة، تصفف شعرها أو تضع بعضاً من الكحل على عينيها، وفي لحظة ما تتخذ حركتها شكلاً بطيئاً ثم أبطأ ، إلى أن تتوقف تماماً عما تفعله. تحديق في انعكاس صورتها على المرأة، يهدر داخلها زعر عنيف، يضرب جدران ذاتها لتنفطر الكآبة والأسى داخلها ومن ثم تنساب الدموع من عينيها، تتهد وتبدأ في النحيب بصوت رقيق.

حسناً إنني أفترض وجود علاقة وطيدة - فلنسمها ثنائية - بين الجمال والرعب؛ تنكشف في اللحظة التي نتذوق فيها الجمال بكل ضروبه وتنغمس فيه ذواتنا تماماً، ونصل إلى أقصى درجات النشوة والارتواء، في هذه اللحظة بالذات يملكنا الحزن الذي يفضي بدوره إلى الرعب.

والرعب هنا ينبع من إدراك الإنسان لحقيقة فنائه، فهو يتمنى دوام لحظة الجمال هذه للأبد، أن تكون خالدة، رغم وعيه بحقيقة هي عكس ذلك تماماً، وكما أوضح ريلكه "إن الإنسان مكبل بوعيه لحقيقة موته " .

ولتعزيز هذا الافتراض سأستعين ببعض المقتطفات الأدبية التي قرأتها سابقاً، وانتهت أنها تنطوي على بعض التجارب الشعورية في هذا الاتجاه. لأؤكد بأن الأشياء موجودة دائماً فقط تحتاج أن ننتبه إليها .

ولتكن البداية بمستهل المراثية الأولى من مراثي دونيولريلكه حيث يقول:

مَنْ لو صرختُ سيَسْمَعُنِي،

في تراتيبِ الملائكة؟ ولو حدثَ يوماً

أن يضمّني أحدهم فجأةً إلى قلبه

فسأفني بباعثٍ من حضوره القوي. ذلك أن الجَمال

إن هو إلا بدايةُ الرعب. ما لا نكادُ نقدّرُ أن نحتمله،

ولئن كنا نلفيه جميلاً فلأنه، يبرود، يأنف

من تحطيمنا؛ مُرعب هو كل ملاك.

هنا يركز الشاعر على حالة الاحتراق أو التماهي المتوقعة لحظة العناق، بقدر ما أنها لحظة تنضح بالجمال فهي مرعبة تماماً .

وكما نعلم فإن تذوق الجمال يتم عبر وسائل الحس كلها، وعن طريق نظرة متفحصة ها هو الشاعر عبد الله شمو يجلي الفكرة بوضوح في قصيدته مريم الأخرى، المقطع القائل: " ما الذي يجعلني أبـدو حزناً حين ارتاد التسكع في مرايا وجنتيك"

هنا يدرك الشاعر لتجربة الرعب الذي ينتابه ممزوجاً باللذة – المتمثلة في كلمة التسكع – فهو مدرك لكنه الشعور الذي تملكه، لكنه يتساءل عن السبب . والجمال هنا ليس مقصوداً على الجسد الإنساني فحسب، بل في حالته الشاملة بمعنى أنه قد يكون مشهد طبيعي، صوت طائر، لحن أغنية، شارع مضاء بأنوار باهرة. ببساطة كل ما يمكن للفرد تذوقه كجمال.

فمثلاً ها هو بورخيس يقول: " هذه الأشجار تثير رعباً فيّ، يا لجمالهن". ولسياقة البيت هذه أهمية كبيرة فهو يؤكد على الرعب أولاً ومن ثم ينتقل إلى العلة . وثمة أمر مدهش فيما يخص المساحات الممتدة، الحركة الدائمة للبحار، لا محدودية الأفق والتقاءه بالسما في سطر المدى، بل كل ما له شكل الديمومة أو الاستمرارية.

وفيما يلي ثلاث أمثلة بخصوص ذلك، لكن أولاً لنثبت مفهوماً محدداً للزمن؛ باعتبار اختلاف مكاني.

لنجلس برفقة معاوية محمد نور في مواجهة النيل، وهو يحتسي سكون الليل، يرقب الجريان الأزلي لهذا الدفق المائي، الزئبقي – بتعبيره. بالقرب من النيل ليستعيد فيما بعد تلك اللحظة وتجربته الشعورية خلالها ويكتب خاطرته البديعة "في الخرطوم خواطر وذكريات محزونة" وفيها يقول : " وهذا الجمال ما شأنه؟ هذا الجمال الساهي الوادع الذي تستمرئه النفس لأول نظرة ، ويفرح له اللب، وتجزل الروح، ماله يميل بذهني إلى خواطر محزونة، وصور مشجية ؟ هذه السفن التي تنبسط أمامي أجُلها في خوف لعل السبب موت خال لي غريقاً في سفينة بخارية في النيل الأزرق. و"توتي" المنبسطة مالها تثير في نفسي شجوناً حزناً ؟ وما لشجوها الكئيب الذي لم يبق له إلا أن يدمع؟ وما هذه الوحشة المخيفة؟"

وننتقل من معاوية نور إلى ألبير كامو ، المتمدن على رمل الشاطئ، بعد خروجه توأ من البحر، وهو يندى بمائه المالح. تغسله الشمس بأشعتها الباذخة التي تنثال إلى مسامه، ثم يفكر في رائحة زهر نبات الأفسنتين تداعب أنفه ويقول: "سأعي أنني ، رغم كل الآراء المسبقة، أحقق حقيقة الشمس وستكون أيضاً حقيقة موتي. وبمعنى ما ، إنها حياتي التي أقامر بها هنا ، حياة لا طعم الحجارة الساخنة، مليئة بتهديدات البحر والزيران التي أخذت تغني الآن. النسيم رطب والسماء زرقاء".

وأخيراً سنترك كامو ونسير صوب خوان بابلو كاستيل بطل رواية النفق لأرنستو ساباتو وهو يتمشى بصحبة حبيبته على شاطئ النهر فينتابه حزنٌ عظيم فيقول : " كان حزني يشتد شيئاً فشيئاً، ولعل السبب في ذلك يعود أيضاً إلى صخب الأمواج الذي كنا نحس هديره يتناهى إلى مسامعنا تدريجياً. حينما اجتزنا الهضبة ، وتجلت أمام عيني سماء ذلك الشاطئ ، شعرت بأن لا مناص لي من ذلك الحزن أبداً ، فقد كان ينتابني دائماً عندما أواجه الجمال ، أو على الأقل ، بعض أنواع الجمال. هل يشعر الجميع بمثل ما أشعر ، أم أن ذلك عيباً آخر من عيوب طبيعتي التعيسة؟" ويتضح جلياً اشتراك الأمثلة أعلاه في تفاصيل نوعية عدة، البحر/النهر بسرياته الدائم، صوت الموج، الشمس، السماء، وكل هذه أمور تتسم بصفة الثبات أو الديمومة وهي رغم جمالها إلا أنها تذكر الإنسان دائماً بحقيقته الوحيدة، أنه فان. ورغم أن هذا الفناء والمحدودية، هذا الموت هو الذي يمنح حياة الإنسان قيمة فعلية إلا أنه يظل تخامره رغبة في الخلود. الخلود في لحظة معينة، اللحظة التي ينغمس فيها في الجمال بكل كيانه. وقد أنجزت هذه الفكرة صديقة لي هي أريج مهدي في كلمات قليلة، بديعة قرأتها مؤخراً تقول : " الجمال لن يغفر لك، والفناء هو الدليل " .

كثيراً ما تساءلت خلال السنوات الفائتة عن كنه ذلك الشعور الذي انتابني وأنا أشهد غروب الشمس برفقة جدي في السابعة من عمري من فوق قمة جبل القد، ذلك الشعور الذي استعدته كاملاً في ذاكرتي خلال سفري نهاية العام الفائت إلى ولاية النيل الأزرق فقد كنت حزينا جداً ، وأنا أحرق عبر النافذة إلى السماء والأرض المخضرة ، الأشجار التي يخلفها الباص ورائه. أعادني كلياً إلى وقفتي تلك فوق قمة الجبل وهو ما ضمنته لاحقاً في رسالة موجهة إلى صديقي ، ها هو مقطعها : " لم أدر الشعور الذي تملكني حينها. لكن عندما استعيد تلك اللحظة؛ مشهد الفراغ العريض الممتد، الأرض الخضراء المنبسطة في الأسفل على امتداد الرؤية ، السماء المضرجة بحمرة الغروب الباهرة، والدخان المتكاثف في صعوده الأخير وكأن الأرض

تتنفس الصعداء، والشمس التي كانت تغسل الكون هي نفسها التي أذابت شيئاً ما بداخلي، غرست بذرة النار جواي لتتفتق زهرة من الحزن اللامتناهي والغير مسبب محيلة هذا الكائن إلى خرائب بالية. وهذا الأمر أثر علي بصورة ناجزه ليجعلني لا أومن بشيء سوى الجمال وأن تبني مواقفي من الحياة والوجود بصورة ما عليه".

والآن يا ترى ماذا حدث للبنت التي كانت تحقق في المرأة ؟

إلى صديق

"إليك وأنت في كامل حضورك فينا "

لا أعلم أين أنت الآن، ولكنني أتخيلك في هذه اللحظة أو التي قبلها ترسم على وجهك الابتسامة الحزينة نفسها ، وأرجو الا يكون قد أصابها أي اهتراء.

اليوم أكملت الارض دورتها الثانية حول الشمس منذ غيابك ، حين خرجت لتحضر لنا العشاء من عم عبدو، وقد أقنعناك كاندي الجميلة و أنا أن يكون بيضاً وجبنة بدلاً عن الفول كاحتفالية خاصة بيوم الخميس بينما اكتفت والدتك بابتسامة، اذكر انك قلت ساخراً حينها: " بكره بتقولو عايزين عصيدة البرجوازيين!"

- ودي شنو كمان؟

- إنها البيتزا يا عزيزي.

كانت تلك آخر مرة اضحك فيها ملئ قلبي جراء سخريتك من كل شيء ...

هذا الغياب ولد بداخلي شعور مبهم ، كالذي تحسه عندما تمشي على ظهرك سحلية. اكتفيت فيه برصد الاحتمالات الكثيرة ، لكنني استبعدت فكرة الموت ، لأنك قلت لي ذات سرحة أن الإنسان يمكنه مقاومة الموت أو الاستسلام له وأنا أحب الحياة ولن أموت قبل الخمسين.

إن أكثر ما يحبطني هو الحزن الذي يعتري كاندي، كاندي الجميلة ، لذلك بت أخذها إلى الحدائق ، نرسم ونغني للأطفال حتى أنها تعرفت على العديد من الصديقات والأصدقاء ، وأنشئوا معاً مجموعة أطفال بكرة، وقد وفرت لهم عدداً مقدراً من كتب أدب الأطفال، وهي محاولة لتقديم شيء جميل - بدل الزيف والقبح الذي يحشونهم به في المدارس - فكل ما نستطيع تقديمه نحن المطحونين في طاحونة الاله هو الحب بينما نرقص على إيقاع الرصاص.

نحن نتوقعك في أي لحظة لذا لم يحرك احد شيئاً من على تلك الطاولة ، ما تزال الأشياء في أماكنها وكما تركتها. كوب قهوة فارغ ، ورقة مكتوب فيها : رسالة إلى قنديل بحر، وقصيدة لم تكتمل بعنوان "فتاة الخطيئة" سأوردها هنا علك تستطيع تكملتها، فعادتك أن لا تحفظ شعرك :

أنا

فتاة الخطيئة

لم يكتمل نموي بعد

فالدماء التي تناثرت في ذلك اليوم

انجذبت إلى أعلى

بدل أن تجعلني أنمو

اكتشف أسرار أنوثتي

و أنجب الكثير مني

أنا

القريبة منكم
 مسافة بعدي عن نفسي
 و البعيدة عنكم
 مسافة قربي مني
 فالتناقض شيئاً من خواصي
 أنا

سيمفونية الوجود
 و موسيقى الرب
 فاعزفوني لتلتمسوا للحياة معنى
 تسكتوا موسيقى الرصاص
 و ...

حكيت لي والدتك الكثير من مواقف طفولتك ، لكن أكثر ما شدني ذلك الموقف حين
 كنت في التاسعة من عمرك و قمت بكسر قفص عصافير جاركم عبد العاطي،
 طارت كل العصافير غالية الثمن ، حينها شتمك بألفاظ نابية، و أراد ضربك، لكنك
 هربت وعدت مع غروب الشمس، فسألتك: لماذا فعلت ذلك، فأجبتها وأنت مرهق و
 شبه نائم يا أمي: " إن الله خلق للعصافير أجنحة كي تطير".

الثقوب

الثُّقْب تمظهر الريح في الناي، خيط الضوء الذي يتسرب إلى العتمة فيشعل نار الأمل، ما يفتعله الطائر بالثمرة ليتأكد من نضجها .

الثقوب للتلصص، لتمرير حبل خلال باب قديم؛ يعشق لمسات أنامل الصبيات ويزعجه صوت الجرس. لتثبيت الأقراط؛ وهو احتفال فيه تحقق أنوثة الصبية وتشع عينها وهي تتفحص أقراطها الأولى في المرأة، .

الثقب أسفل المزهرية حتى تتنفس النبتة الصعداء في مساءات ضجرة. .

وهناك ثقب الحياة واللذة وهو ما خُدش بين نهري الأنثى .

وللثقوب علاقة بالنظر، النظرة الثاقبة، الحانية، كأن يختلس صبي نظرةً إلى وردة فتاةٍ من ثقب أعلى فستانها فيرتبك.

وهناك الروح المثقوبة، القلب المثقوب والجسد المثقوب؛ أما الروح المثقوبة فهي الروح المعذبة بالأسئلة، الأسئلة التي تكبر يوماً إثر يوم كدوائر يصنعها حجر القي في النهر، فهي تتخلق صغيرة ثم لا تنفك تكبر وتكبر، والإنسان لا يفني حتى تصبح روحه ثقب عظيم، حين يرهقه الوجود .

و الجسد المثقوب هو ما لخصه الطفل الصغير حين سمع بائع السكاكين يعلن أن ثمن الواحدة خمس جنيهات، حينها تملكه خوف حقيقي وسأل والدته والدموع تترقق في عينيه: لماذا سعرها زهيد هكذا ؟

- لأنها ليست بتلك الأهمية.

- لكن يا أمي بإمكانها ثقب أجساد الناس كافة!

أما القلب المثقوب هو ما ثقبته نار العشق وأذابته، و كمثل تستحضرني قصة الفتاة العاشقة، التي كانت فرحة للغاية ، تشعر بأن كل شيء في الكون جميل وساحر، حتى وأنها في شارع بيتهم قبلت الطفلات الصغيرات اللاتي كن يلعبن الحجلة، اشترت لهن الحلوى بما تبقى من مصروفها الجامعي ثم دخلت المنزل، رمت حقيبتها الوردية في كرسي الصالة، شغلت جهاز الموسيقى، احتضنت والدتها، بدأت مراقبتها في دهشة من الأم،

كانت أغنية long drive لجايسون مِراز وعندما صدى الفنان ب:

Let's get lost I don't want to be found

Let's get away now

كانت الأم تراقص الفراغ فالبنت اختفت كفص ملح في ماء، حينها جاء العلماء، الشرطة، الشيوخ، نساء الزار لكنهم لم يصلوا إلى شيء، وبعد أسبوع طرق الباب شخص كث الشعر، هزيل بطريقة عجيبة، تبين فيما بعد أنه شاعر، ادعى امتلاكه تفسيراً للظاهرة وتحدث وهو لا ينظر إلى جهة بعينها، كأنما يكلم نفسه قائلاً: هذه الظاهرة تسمى "التوحد العشقي"، وقد حدثت ثلاث مرات في تاريخ البشرية، سببها هو القبلية الأولى لعاشقان؛ حيث يبلغان درجة الارتواء وبعدها يدوبان، وفي ما يبدو أن ابنتك - مشيراً إلى الأم - وعاشقها كانا على عجلة لسبب ما، لذلك احتاجا إلى وسيط تمثل في الأغنية.

والثقب قد يكون ضئيلاً كخرم إبرة أو عظيماً كثقب... لحظة، لحظة !
في ذات اتكائه وأنا أحاور السماء بلغة الدخان، الدخان الحريف المنبعث من سيجارة السمو- هكذا اسمها- محاولاً رنق ثقب الأوزون منطلقاً من قناعة راسخة بأنك كي تنقذ الأرض عليك فعل ذلك بشيء منها و إليها. وأنا في اتكائي تلك اجتاحتني ذكرى أيام لا تنسى، أيام الرنق الأعظم، عند وفاة مغني الريقي الأول بوب مارلي أذكر أننا أقمنا عزاءاً لمدة ثلاثة أيام كاملة بمنطقة الحاج يوسف الوحدة، كان صوت المغني يتدفق من أجهزة الساوند الموزعة في أماكن متفرقة من الصيوان، بينما كنا نغنى معه كجوقة سماوية، انتابني شعور إيماني عجيب في تلك اللحظة فصحت: يا الله، كم أنت عظيم يا من خلقت الماريجوانا.

و ثمة علاقة بين ثقب الإبرة و ثقب الأوزون تتمثل في معطى خارجي و سأوضحها كما يأتي، لنتخيل سيدة في منتصف عقدها السادس تريد حياكة فستان لحفيتها، أخذت السيدة طرف الخيط و مررته على فاهها مساوية له برضاها، ومن محاولة واحدة استطاعت إدخال الخيط في سم الإبرة، حينها فقط تجتاح تقاطيع وجهها الستيني سعادة غامرة. نفس الأمر يحدث مع سيجارة السمو خاصتي، فأنا في حاجة إلى الرضاب على الورقة لتكون متسقة، متماسكة وانطلق في مهمتي. وعندما أقول مهمتي لا يعني ذلك أن الأمر مفروض علي من جهة ما لباعث أخلاقي أو ديني ، أو تلك الكلمة المضحكة التي تدعوها إنسانية! فهي تنم عن أنانية شديدة باعتبار الإنسان هو مركز الكون، لا يا عزيزي/ عزيزتي فربما أن هذا الكون موجود من أجل مستعمرة طحالب في حديقة هوميلوت في كوبا.

والثقب هو كل ما يحتاجه السجين ليرى العالم؛ يروى أن النازيين كانوا يرحلون مجموعة من اليهود في عربة ذات كبينة عالية بها فتحة صغيرة قرب السقف، حمل

السجناء واحد منهم على الأكتاف، ألقى نظرة متفحصة على المنظر بالخارج ثم بدأ يصفه لهم.

وما تزال الثقوب السوداء هي أمل العلماء للسفر في الزمن - ماضياً و مستقبلاً، وهم لا يعون أن السفر الحق إنما إلى الداخل، تتجلى فيه قدرة المخيلة والذاكرة. والزمان الحق هو المعاش داخلياً؛ وهو في شكله الأبسط مكان متحرك، لذلك الأحرى بهؤلاء العلماء قراءة قصة الآخر لبورخيس.

عشر دقائق من هذيانات عاشق

١:٤٠ص

اللحن الشجي بتدفقه الأزلي يبدأ منك وينتهي إليّ ؛ أنا المتسائل دوماً دون أجوبة.
أذرع الأماكن كلها، باحثاً عن ابتسامة سقطت من شفتيك سهواً. أتلقفها لأبذرهما في
غياهب روعي المظلمة، بهذه الطريقة فقط سأتقن لغة الضوء وانكساراته. أه لماذا
ينكسر الضوء!

١:٤٣ص

وأنت تستلقين دون اكتراث، مسدلة شعرك وما تبقى من ذكريات على الوسادة،
وقبل إغماضك عينيك؛ حدقي ملياً في العتمة امتصها كما يفعل إله في وحدته.
والآن أغمضيهما وفكري في ملياً. هل أدركت لماذا ينكسر الضوء؟، الضوء مقابل
العتمة، وأنت مقابل وجيب ونداء هذا القلب الذي أحبيته منذ أن كان فكرة في
مخيلة الرب، أنت يا من منحتي هذا الطين الفائض نافذة ليشرع في التحليق
ويحرك الفراغ اللامعدي من حوله فكان تولدُ الريح.

١:٤٤ص

يا لهول ما يطرزه غيابك من صمتٍ في الأمكنة فيتبقى فقط خُفوت الكائنات ونشيج
الملائكة المكتوم، تنسل خيوط الوحدة من دخيلي لتشيد قلاع من الفقد الموجه،
اشعر بألم حاد يجتاحني.

١:٤٦ص

أنتِ لستِ هنا، يا لهذا الموات.

١:٥٠ص

ينطفئ وهج الشمعة الأخيرة ، يسدل السكون ستاره على مسرح الكون، وأنتِ لم
تعودي بعد، لذا يبدو أنني سأنتظر اشتعالاً آخر.

شذرات

(١)

ريحٌ خفيفةٌ تحركُ عجلةَ الوقتِ.
 ضوءٌ أخضرٍ يمشطُ عتمةَ الليلِ.
 وصبيٌ بعينينِ ذاهلتينِ يحدقُ من النافذةِ،
 يتنفسُ العدمَ،
 يزفرُ الصمتَ وأهواله.

دون أن يعير بالاً للأذى الذي يسببه
 لوردةٍ أينعت في مقعد الحافلة.

(٢)

مستلقٌ في ذات وحدتك
 تحتسي صمت الظهيرة
 تلوكُ ذكرياتٍ يابسة.
 فيما الكونُ كله منشغل عنك،
 حتى السوس يعزف لحنه الخاص في خشب السقف.

(٣)

لو أنك قصيدة، كنت سأقرؤك بشغف،
 كالذي أتأمل به اتساع عينيكِ.
 لو أنك طريق كنت سأسير فيه بتمهل،
 تماماً كما أنقب في تضاريس جسمكِ.
 لو كنتِ إلهاً، كنتُ سأسعى لفهمك بصورة أفضل،
 كما أفعل حين حديثك عن أشياء غريبة.
 لو أنك الهواء كنتُ سأتمرّد عليه،
 مثلما أفعل وأنا أتنفّسك؛
 حين أدفن شفّتي داخل ثغرك لساعة.
 لكن بما أنك هنا فلا حاجة لقصيدة، طريق، إله أو حتى الهواء.

(٤)

كإله أنا
 أجلسُ على حافةِ الحلم
 أخلقُ حيواتٍ بداخلي،

حيوات ليس فيها بشر.
 بل خنافس ذهبية ،
 نمل سكر،
 ضفادع ذات نقيق جميل،
 قناديل بحر،
 وكائنات لم يفكر فيها الله.
 لكن لا شيء يحدث...سوى الوحدة،
 التي تتأكلني.
 فأغامر بإشعال سيجارة
 بأخر عود ثقاب تبقى لي
 وأرصد احتمالات ألا تشتعل.

(٥)

ينبعث اللحن أكثر حزناً
 لأنك لست هنا
 لتشرق في فضاء الروح،
 الروح المرهقة، كريشة تملصت من جناح طائر
 كأوراق الشتاء
 لكن بيننا كل التفاصيل الصغيرة
 والحنين إلى لقاء
 كي نرتب ما شكله البعد فينا.
 نتعلم التحليق نحو الشمس، نحوك.

(٦)

القُبلة التي أودعتها إياك في الحلم كانت هي سبب الطوفان. وذات يوم وأنا أعبر
 شارع ما لمحتُ مسجداً فقرأتُ اسمه "القُبلة" - فابتسمت، هل علمتي الآن ما يمكن
 لشفاهك أن تفعله؟

ملاحظة: تقاضي عن ذرائع اللغة التي جعلته قُبلة بدلاً من قُبلة.

(٧)

من حرص الجزيرة لتتمرد على النهر وتجلس هكذا على خاصرته؟ ثم تدعي أنها
 مؤشر الانحسار وتلاطم الموج؛ تكسره وهذيانه في كل الجهات.

(٨)

جميلة أنتِ كحالة الجذب المشحون، كمزيج الالهفة والانتشاء الذي يملكني وأنا
أرقص على إيقاع آخر صولة في حفل "زنق" - هكذا عبر الشاب عن حبه اللامحدود.
(٩)

عندما كنت أرمي بابن أختي الصغير في الهواء، اتركه محلقاً لبرهة قبل أن التقطه
مرة أخرى وأشاهد تفرق الفرح في عينيه، اسمع تموسق ضحكاته. نهتني جدتي عن
ذلك قائلة بلغتنا المحلية - التي لا تجيد غيرها - ما معناه: "الأطفال مليئون
بالدهشة لذا أخاف أن يعجبه الأمر ، فيتقمص دور الطائر ويحلق بعيداً من غير
رجعة".

(١٠)

الصوت الحزين المتدفق من اصطفاق أجنحة الحمام أعذب من هديلها بمقدار ما
يعنيه التحليق من حرية.

(١١)

مَنْ يُنْجِيكَ

مِنْ سِحْرِ صَبِيَّةٍ تَغْفُو سَاعَةَ الْمُشَاطِ

مِنْ حَقْلِ الْقَمْحِ الْمَجْدُولِ فِي رَأْسِهَا،

وَهِيَ تَجْلِسُ الْقَرْفَصَاءَ فَوْقَ عَرْشِهَا الْأَنْثَوِيِّ

مِنْ عَيْنَيْهَا الْمَغْمُضَتَيْنِ وَوَجْهَهَا الضَّاحِكِ

مِنْ قَوْسِ ابْتِسَامَةٍ تَلُوحُ لَكَ فَتُثِيرُ فِيكَ الْارْتِبَاكَ.

مَنْ يُنْجِيكَ؟ مَنْ؟

(١٢)

منذ حين وأنا أحاول أن أهش الغبار العالق بثوب اللغة - التي تبدو كامرأة صعبة
المنال - إلى المعنى المخبوء في ذاتها، وفي كل مرة يبدو الأمر عصياً جداً لذا الأجدى بي
التزام الصمت.

كتاب جيل جديد الناس



مُجاهد الدومة

وهناك الروح المثقوبة، القلب المثقوب و...
الجسد المثقوب؛ أما الروح المثقوبة فهي
الروح المعذبة بالأسئلة، الأسئلة التي تكبر
يوماً اثر يوم كدوائر يصنعها حجر القي في
النهر، فهي تتخلق صغيرة ثم لا تنفك تكبر
وتكبر، والإنسان لا يفني حتى تصبح روحه
ثقب عظيم، حين يرهقه الوجود

لوحة الغلاف : زينب سعد الدين